﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: 40 - 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إبطالُ شُبُهاتِ أهلِ الشِّرْكِ

لَمّا ذكر الله تعالى في الآيات السّابقةِ جملةً من شُبُهاتِهم الباطلةِ، وعمِلَ على إبطالها من نحو استقوائِهم بكثرة المالِ والولد، وادعائهم أنَّها مانعةٌ لهم مِنَ العذاب، وبيَّن أنَّها لا تقرِّبهم إليه سبحانه زلفى، ومن نحو أنَّه تعالى هو مَن يبسطُ الرِّزق لعباده، وأنَّه خير الرّازقين لا مَن تعدّونهم، فتضيفون الرِّزق إليهم، فما هم إلّا وسائطُ لا يقدرون على شيء إلّا ما قدَّرهم الله عليه، فلمّا أبطل هذه الشُّبه؛ عُلِمَ أنَّ الأمر جميعَهُ لله الواحد القهّار، ثمَّ إنَّه قد بقي من شُبَهِهِم عبادتُهُم الملائكةَ ظنًّا منهم أنَّهم يشفعون لهم؛ إذِ الملائكة من المقرَّبين، فأبطل هنا هذه الشُّبهةَ من تعلُّقِهم بذلك، وبيَّن أنَّهم لا أمر لهم، وأنَّهم بريؤون من ذلكَ الادِّعاءِ، فما الملائكةُ إلّا خَلقٌ مِن خلق الله، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرون، وآيةُ ذلك أنَّهم تبرَّؤوا منهم مفتتحين كلامَهم بتنزيه الحقِّ ﷻ الذي لا يليقُ بجلالتهِ أن يُعبدَ أحدٌ سواه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: (سبح) أصلانِ: أحدهُما جنسٌ من العبادَةِ، والآخرُ جِنسٌ من السَّعيِ[2]، وسبحانك: مضافٌ إلى الضَّمير العائدِ على الله تعالى، وجذره اللُّغوي (سبح)، ومنه التَّسبيحُ، ومعناه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519 - 520.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).

التَّنزيهُ عن جميع ما لا يليق به ﷻ مِن أوصافٍ، وتبعيده من كلِّ ما يوصَفُ بالسّوء، فالتَّنزيه تبعيدٌ للّه جلَّ ثناؤه من ذلك، فإنَّ مِن أقوال العرب: سبحان مِنْ كذا، أي: ما أبعدَهُ[1]، وله معانٍ أخرى كتعظيم اللّه، وتمجيده بالصَّلاة والذِّكر[2]، ويعدُّ التَّسبيح من الأمور العامَّة الشّاملة في جميع العبادات قولًا أو فعلًا أو نيَّة[3]، ومعنى ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وهو من قول الملائكةِ في الآية، أي: ننزِّهك يا ربَّنا تنزيهًا لك، ونبرِّئُك تبرئةً ممّا أُضيف إليك مِن هؤلاء مِن الشُّركاء والأنداد[4].

2) ﴿وَلِيُّنَا﴾: (ولي) أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُربٍ، من ذلك الوَلْيُ، يُقال: تباعدَ بعد ولْيٍ، أي: قُرب، وجلس ممّا يليني، أي: يُقاربني، ويدلُّ على اللُّزوم مع شيءٍ مِن جهة الاشتمال، وعدم الانفكاك، وكما هو حالُ الوليِّ؛ فإنَّه ملازمٌ لمولاه، لا ينفكُّ عنه، وتأتي الولاية بمعنى النُّصرة، وإن كانتِ الولايةُ كائنةً بين الكافرين في الدُّنيا، فإنَّها منفيَّةٌ عنهم في الآخرة[5]، أي: ينصر بعضُهم بعضًا في الدُّنيا، ويترك بعضُهم بعضًا في الآخرة، أمّا الحقُّ سبحانه؛ فهو الوليُّ الحقيق بهذا الاسم، ومعنى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ هنا: "أي: ما كان ينبغي لنا أن نوالِيَ أعداءك، بل أنت وليُّنا من دونهم"[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

براءةُ الملائكةِ من عبادة الضّالّين

في اليوم الذي يحشرُ اللّهُ تعالى الخلقَ؛ يسألُ اللّه تعالى الملائكةَ عن هؤلاء الضّالّين أكانوا لكم عابدين حقًّا؟ فتتبري الملائكةُ تنزِّهُ ربَّها عن شِركهم، وأنَّه تعالى وحده الوليُّ من دون غيرِهِ، فلا يتَّخذ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سبح).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبح).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 299.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ولي).
(6) الثعلبي، الكشف والبيان: 19/ 377.

غيره وليًّا سواه، ونحن - أي: الملائكة - بريئون ممّا نسبوا إليك من الشِّرك والسّوء الذي أضافه لك هؤلاء، بل كانوا يعبدون الجنَّ، فهُم ضالّون سائرون على نهج الشَّياطين، مغترّون مصدِّقون بعبادتهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾:

بيانُ جَمْعِهِم إلى الله تعالى يومَ الحَشْرِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ دالَّةٌ على العطف؛ فإنَّه لَمّا ذكرَ شيئًا من شُبهاتهم الباطلةِ، من نحو استقوائِهم بالمال والولد، وإضافةِ الرِّزق إلى غيره تعالى؛ فإنَّه قد بقي من تلك الشُّبهات عبادتُهم الملائكةَ بادِّعاء شفاعتها لهم، لا جرمَ أنَّ الملائكةَ مقرَّبون، غير أنَّهم بريئون مِن تلك الأباطيلِ، فعطف يومَ الحشر على قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: 31]، وأنَّهم مجموعون إليه بعد البعثِ[2].

فظاعةُ حالِ المُشركين يومَ القيامةِ

وجملةُ الحشر من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ متَّصلةٌ بما مرَّ مِن قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: 31]، والمعنى: أنَّك لو رأيتهم في هذه الحالِ؛ لرأيت أمرًا فظيعًا، وهو أنَّهم محشورون جميعًا للحسابِ: العابدون والمعبودون[3].

ويجوز أن تكون الواوُ استئنافيَّةً[4] بادئةً بكلام جديد مستقلٍّ؛ فإنَّ الحشر واقعٌ على الجميع مِنَ المشركين، ومن عبدوه مِنَ الملائكة[5] لا يتعلَّق بشيء قبلَهُ، فيوم الحشر يومٌ آخر، سيجمعُ اللهُ فيه النّاس جميعًا، فهو يمثِّل حدثًا مستقلًّا بذاته، وفي استقلاله إشارةٌ إلى أهمّيَّته البالغة.

(1) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 9534.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 308.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 104.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 454.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَيَوْمَ﴾:

التَّذكيرُ بعظمة يوم الجَمْعِ

﴿وَيَوْمَ﴾ مِن قولهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ مفعولٌ لعامل مضمرٍ، تقديره: واذكر يومَ يحشرهم[1]، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ يُضفي على الكلام قوَّةً وإيجازًا، ويجعل المتلقّي يشارك في استكمال المعنى بما فيه مِن دلالةٍ قويَّةٍ على عظمة يوم القيامة وجمْعِ النّاسِ فيه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَيَوْمَ﴾:

تعظيمُ يومِ الحشر وتهويلُ الأمر فيه

أورد لفظ ﴿وَيَوْمَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نكرةً تهويلًا وتعظيمًا[2]؛ لتذهبَ النَّفسُ في تصويره كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، فتتزاحم على المخاطَبين من الظُّنون المعترضة لما سيُصيبهم ذلك اليوم ما لا يتزاحمُ لو جاء بهِ معرفةً.

دلالةُ التَّعبيرِ في الفعل ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

جمْعُ الخلقِ من غيرِ اختيارٍ منهم

للتَّعبيرِ بالحشر في قوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ إشارةٌ بيانيَّةٌ، وهو أنَّه تعالى يجمعُهم غير مختارين ولا مريدين، وأنَّ في الحشر إشارةً إلى كثرتهم، وأنَّ هذه الكثرةُ ليست مانعًا من جمْعِهم وحسابِهم ومُجازاتِهم على ما كان مِن أفعالهم[3].

لطيفةُ صوغِ فعل الحشر مضارعًا:

تصويرُ مشهدِ الجموعِ المحشورة منتظرةً مصيرها

في التَّعبير بفعل الحشر ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بصيغةِ المضارع لطيفةٌ؛ وهي أنَّه أراد أن يصوِّر ذلك المشهد المهول حيث تموجُ تلك الجموعُ مِن البشرِ المحشورة بانتظار مصيرها زيادة في التَّخويفِ بما يدلُّ عليه الفعلُ المضارع من خاصَّة الحدوث والتَّجدُّد والاستمرار.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 423.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 83.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/ 2667.

مرجعُ ضميرِ الفاعل في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ مشتملٌ على ضميرٍ يعود إلى الحقِّ ﷻ[1]، فإنَّه هو المتولّي حشْرَ عبادِهِ يومَ القيامة لا غيره.

اللهُ تعالى هو المتولّي حشْرَ عبادِهِ يومَ القيامة

مرجعُ ضميرِ المفعول في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

الضَّميرُ (هم) في قوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ راجعٌ إلى الخلقِ جميعًا من المستكبرين والمستضعفين، وما كانوا يعبدون مِن دونِ اللّه تعالى[2] مِن الملائكة والجنِّ، فيجمعُهم المولى سبحانه؛ ليحاسبَهم على أفعالهم إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ.

حشْرُ اللهِ تعالى الخلقَ ومعبوداتِهم من دونِهِ

دلالةُ الجمعيَّة في قوله: ﴿جَمِيعًا﴾:

عبَّر بالجمعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، وهو لفظٌ على زنةِ (فَعيل)، ومعناه (مَفْعول)، أي: مجموع، يأتي درءًا لتوهُّم عدم الشُّمول، أو إرادة الخاصِّ بلفظ العامِّ، وهو معنى ﴿جَمِيعًا﴾ في كلام العرب[3]؛ فإنَّه تعالى سيحشرُهم جميعًا؛ ليعمَّ حشرُه أصنافَ المشركين، وإن اختلفت نِحَلُهم واعتقاداتهم فيما يشركون؛ فإنَّ المشركين من العربِ لم يكونوا على مذهَبٍ واحد، بل كانوا نِحَلًا شتّى يأخذ بعضُهم من بعضٍ، وليس لهم مذهب منتظمُ العقائد والأقوال غير مختلط متنافٍ[4].

استيعابُ الحشرِ جميعَ أصناف المشركين

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾:

لمّا كانت مواقفُ المشركين في الحشر طويلةً، وزلازلُهُ عليهم مهولة[5]؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بما يبثُّه حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ مِنَ المهلة والتَّراخي[6]، وفي ذلك تحقيقُ مزيدٍ مِن عذابهم في

طولُ المدَّةِ وتراخيها يزيدُ من هولِ عذاب الكافرين

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 616.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.
(3) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/ 291.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 221.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519.
(6) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 250.

تلك المواقفِ المهولة في تلك اللَّحظة الفارقة، مؤكِّدًا على طول المدَّة وتراخيها ممّا يزيد مِن هول العذابِ الذي ينتظرُ الكافرين.

موقفٌ طويل يتبعُهُ قولٌ يقرِّعهم ويؤيِّسهم

والمقرَّرُ في لسان العرب أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ دالَّةٌ على العطفِ مع التَّرتيب والتَّراخي، فيكون القول للملائكة متراخٍ عن الحشر، ويؤيِّده ما ورد في الآثار أنَّ الخَلق بعد الحشْرِ يبقون قيامًا في الموقف طويلًا من دون كلام؛ حتّى يشفعَ فيهم الرَّسول ﷺ، فعند ذلك يقال لهم ذلك القول من باب التَّقريع والتَّبكيت والإقناط عمّا تعلَّقت به أطماعُهم الفارغة من شفاعة الملائكة لهم[1]، وذلك ليس بكائنٍ البتَّة.

دلالةُ (القول) ومرجعه في ﴿يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

توبيخُ المشركين وتقنيطُهم من شفاعة مَن عبدوهُ

فعلُ القول في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ غرضُهُ توبيخ المشركين، وتقنيطُهم ممَّن يرجون منه الشَّفاعة[2]، والضَّمير فيه يعود على الحقِّ سبحانه، وفائدةُ التَّعبيرِ به مضارعًا تصويرُ يأسهم وقنوطهم، وفظاعة حالهم في يوم الوعد الذي أنكروه، وجحدوا وقوعَهُ[3]، كأنَّه محسوسٌ مشاهد.

نفيُ المعبوديَّة عَنِ الملائكةِ وإضافتها إلى الجنِّ؛ يقتضي كون الجنِّ غير الملائكةِ

وفي توجيه القول للملائكةِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ دلالةٌ تقتضي أنَّ الجنَّ ليسوا من الملائكة، وإلّا ضعفَتْ حجَّتهم؛ لأنَّهم إذْ ذاك ينفون المعبوديَّة عن أنفسِهم، لكنَّهم يضيفونها إلى طائفةٍ منهم، ويكون مِن نتيجةِ هذا أنَّ إبليسَ مِن الجنِّ لا مِنَ الملائكة[4].

توجيهُ القراءاتِ القرآنية في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿يَقُولُ﴾:

في الالتفات تعظيمٌ وتفخيمٌ يُلائمُ يومَ الحشر

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿نَقُولُ﴾ والنّون قراءةُ عامَّةِ القرّاء عدا حفصٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 324.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 221.
(4) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ص: 516.

ويعقوبَ، فقد قرأها بالياء[1]، فحجَّةُ من قرأه بالياء المناسبةِ للسّياق فيما قبلَهُ وما بعده ردًّا على لفظ الغيبة والإفراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ [سبأ: 39]، وقوله: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: 39]، وقوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، أمّا قراءةُ النّون؛ فهي خروجٌ مِنَ الغَيبة إلى الحضور، ومن الإفراد إلى الجمع، وفائدتُهُ الإخبارُ مِنَ الحقِّ ﷻ بلفظ الجمع للمتكلِّم تعظيمًا وتفخيمًا[2].

معنى (أل) في ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾:

إبطالُ ألوهيَّة الملائكة يدلُّ على بطلان ألوهيَّة ما دونها

(أل) في ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ تدلُّ على العهد؛ فإنَّهم الملائكةُ الذين كانوا يعبدونهم، والذين جعلوا بينهم وبين الجنَّة نسبًا بقولهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله من سروات الجنِّ، ونكتةُ اختصاص الملائكة بهذا القول: "أنَّ إبطالَ إلهيَّةِ الملائكة يفيدُ إبطالَ إلهيَّة ما هو دونها ممَّن عُبِدَ من دون الله بدلالة الفحوى، أي: بطريق الأَوْلى؛ فإنَّ ذلك التَّقرير من أهمِّ ما جُعِلَ الحشرُ لأجله"[3].

واختصاصُ الملائكةِ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾؛ لكونهم أشرفَ شركائهم ومعبوداتهم[4]، فلا أصلحَ منهم للخطاب؛ ولأنَّ مبدأ الشِّرك متأتٍّ من عبادتهم، فإذا ظهر قصورُهم عن رتبة المعبودِ، واستبان تنزُّههم عن عبادتهم؛ ظهر حالُ غيرهم من شركائهم بطريق الأَوْلى[5] في كونهم خَلقًا من خلقِ اللهِ، وإنَّما كانت عبادتهم من باب الضَّلال.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 257.
(2) مكي القيسي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 380.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.

معنى (الهمزة) في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾:

في الخطاب التَّقريري عظةٌ للسّامعين وزجرٌ للجاهلين وتنبيهٌ للغافلين

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ استفهاميَّةٌ، والاستفهام خارج عن أصلهِ في إرادة طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، إلى معنى التَّقرير[1]، وفائدتها تتعلَّق بالسّامعين لا المخاطَبين من المشركين، فإنَّ الخطاب واردٌ على طريقة قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، وفي ذلك وعظٌ للسّامعين، وزجرٌ للجاهلين، وتنبيهٌ للغافلين[2].

مرجعُ الإشارةِ في ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾:

بيانُ حقيقةِ الضَّلال الذي وقعوا فيه

الإشارةُ بهؤلاء في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ راجعٌ إلى الفريق الذي عبد الملائكة والجنَّ، ومَن كان على شاكلتهم من المشركين[3]، وهم فئة ضالَّة اتَّخذت مِن هؤلاء آلهةً من دون الله تعالى؛ ليكشفَ لنا عن مدى سوء اختيارهم، وعن جهلهم بحقيقة الرُّبوبيَّة.

كشفٌ زيفِ عبادة الأصنام وتأكيد مكانة الملائكةِ

ويجوز أن تكونَ الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ راجعةً إلى الأصنام لا إلى الملائكة، وآيةُ ذلك أنَّ هذا الخطابَ مشتملٌ على التَّهديد والوعيد، ومثل هذا الضَّرب مِن الخطاب لا يليق بالملائكة المقرَّبين[4].

نكتةُ تقديم المفعول ﴿إِيَّاكُمْ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّه لا ينفعُ من العبادة إلّا ما كان خالصًا

تقديمُ المفعول على عاملهِ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ يدلُّ على التَّخصيص، أي: هل كانت عبادةُ هؤلاء خاصَّة بكم دون الله تعالى[5]، وفي ذلك أبلغُ التَّحقيرِ لهؤلاء العابِدينَ؛ حيث لم يتوقَّف كفرُهم عند جعْلِ الشَّريك لله تعالى،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 454.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15520.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/ 245.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 298.

بأن عبدوه، وعبدوا غيرَهُ، بل أفردوا غيرَهُ بالعبادَةِ، وهذا غايةُ الضَّلالِ والكُفرِ والإلحادِ.

التَّقديمُ أبلغُ في الخطاب وأنسبُ للفاصلةِ

ولتقديم المفعول ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على عامله ﴿يَعْبُدُونَ﴾ فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ التقديمَ أبلغُ في الخطاب، وفيه مراعاةٌ للفاصلة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ مع ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾، ولو جاء على ما يقتضيه النَّظمُ من غير تقديمٍ؛ لقال: يعبدونكم، فيكون الضَّمير متَّصلًا، فتفوت الفائدةُ بذلك[1].

الملائكةُ أشرفُ شركائِهم ممَّن عبدوهم مِنَ الأصنام

ويجوز في تقديم المفعولِ على عاملِهِ ألّا يكونَ من باب الحصرِ، كما هو المعهودُ في كلام العرب؛ لأنَّهم عبدوا غيرَ الملائكةِ، كما نطق به القرآنُ الكريم في موضعٍ آخرَ، وإنَّما التَّقديمُ كان؛ لأنَّ الملائكة أشرفُ شركائهم مِنَ الأصنام[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي ﴿كَانُواْ﴾:

الشِّركُ متأصِّلٌ عريقٌ في نفوسهم

يدلُّ التَّعبيرُ بفعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ على عراقتهم في الشِّرك في أنَّه كان شركًا متأصِّلًا في نفوسهم، فكانوا يعبدون الجنَّ والملائكة من دون اللّه اعتقادًا منهم بأنَّها تستحقُّ العبادة، فكشفت الآية حالَ الغفلةِ والضَّلال اللَّذين استمرّا طويلًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يَعْبُدُونَ﴾:

الإشارةُ إلى اعتقادهم استحقاقَ هذه المعبودات العبادةَ على الدَّوام

للتَّعبير بفعل العبادة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّهم كانوا يعبدونهم بأفعالهم الاختياريَّة والقسريَّة طوعًا وكرهًا؛ ليُعلم أنَّهم عبيدٌ خاضعون لكم بما أوتوا من قوَّةٍ وإرادة؛ لأنَّكم تستحقّون عبادتهم[3] على نيَّة الدَّوام والاستمرار بما يذيعه الفعل المضارع من خاصيَّة التَّجدُّد والاستمرار، وهذا أبلغُ في التَّشنيع على صنيعِهِم في إمعانِهم في الشِّرك باللّه تعالى، ودوامهم على ذلك الباطلِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 556.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 528.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.

لطيفةُ إسنادِ العبادة إلى ضمير جماعتهم:

أُسنِدَ فعلُ العبادةِ في قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ إلى ضمير الجمع؛ للإيماءِ إلى كثرةِ من يقعُ مِنه هذا الشِّرْكُ؛ إذْ إنَّ كثيرًا مِن الكافرين يدَّعون عبادةَ الملائكة من دونه تعالى[1].

غرضُ الاستفهام في الآية:

في التَّقريرِ تبكيتٌ وتوبيخٌ

الاستفهامُ في الهمزةِ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ خارجٌ مخرج التَّقرير[2]، فإنَّ العبادة لَمّا كانت غيرَ نافعةٍ لانتفاءِ رِضا المعبود؛ خاطبَ المشركين بهمزة التَّقريرِ تبكيتًا وتوبيخًا؛ فيكون تقريعُهم أشدَّ، وتعييرهم أبلغَ، وخجلهم أعظم[3].

التَّعريضُ بالمشركين بطريق ضرب الأمثال

والاستفهام في ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ خطابٌ موجَّهٌ إلى الملائكة، يُرادُ به التَّعريضُ بالمشركينَ[4]، على طريقةِ المثلِ: (إيّاكِ أعني، واسمعي يا جارة)[5]، فالتَّعريضُ في الآيةِ واقعٌ بطريقة ضربِ الأمثال في جملة المقال، وربَّ تعريضٍ أبلغُ مِنَ التَّصريح.

علَّةُ فصل جملة ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾:

جرى الفصلُ على منهج القول في المحاورة

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ عمّا قبلَهُ من غير أن يُباشِرَهُ العطف؛ لوقوعه في المحاورة محكيًّا؛ ولذلك أورِد ماضيًا، وهو الغالبُ في الحكاية[6]، وهذا الحذف راجعٌ إلى الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّ حكايةَ قولٍ في محاورةٍ تبعثُ في نفس السّامعِ سؤالًا عن ردِّ المحاورِ الآخَرِ، وكذلك قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، هوَ استئناف بيانيٌّ مؤسَّسٌ على سؤال ناشئ من حكاية الملائكة، فإنَّه لَمّا أخبر بحشْرِهم وخاطَب الملائكة بصيغة الاستفهام التَّقريريِّ؛

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 391.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 454.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(5) أبو عبيد، الأمثال، ص: 65.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.

نشأ سؤالٌ مفترض أنَّه ماذا يقول الملائكة حينئذٍ؟ فاستأنف بأن نزَّهوا الحقَّ ﷻ عن ذلك[1].

دلالةُ العدولِ إلى الماضي في ﴿قَالُواْ﴾:

إظهارُ البراءةِ من الرِّضا بشرك المشركين

أورِدَ فعلُ القول مضارعًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فلمّا استأنف؛ عُدِل عن المضارِع، وأورِدَ ماضيًا بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾، والعدول من صيغة المضارع إلى صيغة الماضي، فائدتُه: الإشارة إلى تحقُّق الفعل[2]، فأنت يا ربَّنا ومولانا الذي نواليه من دونهم، ولا موالاة بيننا وبينهم، وفي ذلك إظهارُ براءتِهم ممّا نُسِبَ إليهم من الرِّضا بعبادتهم[3].

نكتةُ إسنادِ القول في ﴿قَالُواْ﴾:

إظهارُ عظمةِ اللهِ تعالى وتحقيرُ الكافرين بألسنة ملائكيَّة طاهرة

في إسناد القولِ إلى ضمير الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ هذا القول اعترافٌ على الكافرين، وإهانة لهم[4]، فهو قولٌ يتضمَّن إظهارَ عظمة الله تعالى، وتحقيرَ الكافرين بألسنة ملائكيَّة طاهرةٍ صدحت بالحقيقة؛ لتكشفَ عن عظمة الخالق، فنادتِ الملائكة بالتَّسبيح والتَّنزيه مؤكِّدة بطلان دعاوى الكافرين.

دلالةُ التَّسبيحِ وإضافته في: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

تنزيهٌ دالٌّ على خضوعهم وبراءتهم من رضاهم بالشِّرك

التَّسبيحُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ حكاية عن الملائكة دالٌّ على خضوعهم، وتضرُّعهم إلى الحقِّ ﷻ، منزِّهين إيّاه من كلِّ نقصٍ وعيبٍ تنزيهًا يليق بجلاله، متبرِّئين ممّا رضاهم بعبادتهم، خائفين من سطوة الله وعقابه[5].

ومورِدُ تنزيهِ الملائكة: براءةٌ ممّا أضاف إليه هؤلاءِ من الشُّركاء

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 529.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 211.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.

والأنداد[1]، وأن يكونَ غيرُ الله مستحقًّا للعبادة، فالله هو المتفرِّد بالرُّبوبيَّة، فينبغي أن يكون متفرِّدًا بالألوهيَّةِ، وهذه فائدةٌ مستوحاة من ذلك التَّنزيهِ مع لازمها، وهو أنَّهم يعلمون ذلك، فلا يصيبُهم ضررٌ بأن يكونوا معبودين[2].

مـورِدُ التَّنزيهِ البراءةُ مِن استحقاق غيرِ الله تعالى العبادةَ

نكتةُ تقديمِ التَّسبيح في الآية:

قولُ الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ بين يدي: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وقبل أن يعلنوا، ولايتهم لله وحده؛ تعبيرٌ عميق عن خضوعِهم وتذلُّلهم لله تعالى، وتَبَرِّئَتِهم من كلِّ ما يعبدُه النّاس من دون المولى سبحانه، وهو تلازمٌ بين التَّنزيه والإعلان بالولاء يدلُّ على عُمقِ إيمان الملائكة، وخوفهم من أن تحلَّ عليهم سطوةُ الحقِّ تبارك تعالى[3].

خضوعُهم لله تعالى بين يدي البراءةِ؛ خوفًا من حلول السَّطوة

واستباقُ الملائكة التَّنزيهَ، ثمَّ إعلان ولايتهم لله وحده اعتذارٌ لاتِّخاذ المشركين لهم شركاءَ[4]، وفيه طلبُ البراءةِ من الرِّضا بأن يكونوا معبودين مِن المشركين؛ فإنَّ الملائكة لَمّا وضعوا أنفسَهم موضعَ الولاية لله ﷻ؛ كان في ذلك تكذيبٌ للمشركين الذين زعموا لهم الإلهيَّة، فالعابدُ لا يكون معبودًا البتَّة[5].

موالاتُهم لله سبحانه تكذيبٌ للمشركين

دلالةُ التَّركيب ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ قدَّم الضَّمير ﴿أَنتَ﴾ الرّاجع إلى الله سبحانه؛ مراعاةً للأدب مع الله سبحانه بإظهار العلَّة مقام المعلول؛ إذ لا موالاة بيننا وبينهم، وفي الابتداء بـ ﴿أَنتَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم لم يخالفوا رضا الله سبحانه؛ فلم يَرْضَوا بعبادتهم؛ لأنَّها خلاف رضاه ﷻ[6].

الجمعُ بين التَّنزيه والإخلاصِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 414.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 529.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222 - 223.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 529.

وفي جملة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ دلالةٌ على الحصْرِ والقصْرِ؛ وذلك لتعريفِ طرفَي الإسناد، والمعنى: أنَّ ولايتنا وحبَّنا إنَّما هو للّه وحده، فأنت وليُّنا ومولانا، ولا وليًّا لنا سواك[1]، وهو قولٌ يجمع بين التَّنزيهِ والتَّقديس والإخلاص في العبادة.

نكتةُ إفرادِ ضمير المخاطَبِ ﴿أَنتَ﴾:

أُفْرِد ضمير المخاطَب في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ لإفادة تحرير قضية التَّوحيد من شائبة الجمع، والمعنى: أنت وليُّنا لا نوالي غيرك، ولا نرضى بغيرك وليًّا، فالعبادة ولايةٌ بين العابد والمعبود، ورضا المعبود بعبادة عابدِهِ جزءٌ من الولاية[2].

أنـتَ وليُّنا لا نوالي غيرك

دلالةُ التَّعبير بالولاية في الخبر ﴿وَلِيُّنَا﴾:

لَمّا كرهوا عبادتهم؛ نفروا منها، وفائدةُ العبادة أن تكونَ وصلًا بين العابد والمعبود، ووسيلة للتَّقرُّب، فأخبروا أنَّ اللّه ﷻ هو مَوْلاهُم، وهو وحده الذي يستمدّون منه العونَ والنُّصرة، فهو معبودهم الذي لا وصلة بينهم وبين أحد إلّا بأمره ورضاه[3].

كرهوا عبادتَهم، فالعبادةُ جسرٌ بين العبد ومولاه لا يكون إلّا برضاه

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أنت ناصرنا ومتولّي أمورِنا، واسما الفاعل والمفعول هو وليٌّ؛ إذ الولايةُ نسبةٌ تستدعي وجودَ طرفين؛ لذلك فإنَّ الوليَّ واردٌ على زنة (فَعيل)، وهو صالح للفاعليَّة والمفعوليَّة، فيجوز أن يكون الوليُّ مواليًا بكسر اللّام، ويجوز أن يكون مواليًا بفتحها[4].

اللهُ تعالى هو الوليُّ النّاصر

دِلالة الإضافة في ﴿وَلِيُّنَا﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، أي: إنَّك أولى بالمعبوديَّة،

كـونُـك وليَّـنا بالمعبودية أحبُّ إلينا من كونِهم أولياءنا بالعبادة

(1) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 497.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.

وأحبُّ إلينا من كونِهم أولياءَ لنا بأن يعبدونا؛ فإنَّ الرِّضا بترك خدمة اللّهِ وعبادته، واتِّباع الهمج الرَّعاع الذين هم أضلُّ مِن البهائم والهوام، لا جرم أنَّه عينُ الجنونِ[1].

براءةُ الملائكةِ من أن يكونوا راضين بعبادة المشركين

وفي إضافة الولاية لهم ﴿وَلِيُّنَا﴾ إثباتُ موالاة اللّهِ ﷻ، وردُّ موالاة المشركين ونفيها، وفي ذلك براءتُهم من أن يكونوا راضين بعبادتِهم؛ لأنَّ تخصيصَ موالاتِهم باللّه تعالى، وإثبات معاداتهم لأهل الشِّرك: ينفي ذلك[2].

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِهِمۖ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ يُرادُ بها التَّوكيد[3] على أنَّ الولايةَ والرُّبوبيَّة إنَّما هي للّهِ وحدَهُ، ولا شريك لَهُ فيها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتركيب ﴿مِن دُونِهِمۖ﴾:

الانقطاعُ إلى ولايةِ الله تعالى والانقطاع من ولاية غيره

قولُ اللّه تعالى: ﴿مِن دُونِهِمۖ﴾، أي: من دونهم منزلةً؛ فأنت أقربُ إلينا من أنفسِنا، وأولى بالولاية من كلِّ شيء، فكيف نترك من هو أقرب إلينا في كلِّ معنًى من معاني الولاية، ونلتفت إلى غيره ممَّن بيننا وبينه عداوة، وأنت أدنى إلينا من كلِّ شيء من معاني العلم والقدرة وسواها، ومن كان هذا حالهُ من المعصية؛ فمآلُهُ الجفاء والعداء[4].

وأدخل حرفَ الجر ﴿مِن﴾ على لفظ (دون) الدّالَّةِ على معنى (غير) في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾؛ تأكيدًا لمعنى الدُّنوِّ في المنزلةِ والرُّتْبَةِ، وجملة: ﴿مِن دُونِهِمۖ﴾ واردةٌ توكيدًا للحصر المستفاد من تعريف الجزأين من جملة: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 212.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 335.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520 - 521.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّـةُ البَيـانِ القُرْآنيِّ في انتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَة لِسياقاتِها

قال اللهُ سُبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: 32]، وقال الله ﷻ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: 18]، وقال الله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾.

أمّا آيةُ البقرةِ؛ فقد تقدَّمها قولُ الله تعالى للملائكةِ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]، فلمّا كانت هذه الأسماءُ لَم يُعلِّمها اللهُ سُبْحانَه للملائكة؛ ناسَب ذلك قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: 32].

وأمّا آية الفُرقان؛ فتقدَّمها قول اللهِ تعالى لِما كان يُعْبَد من دونِهِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾ [الفرقان: 17]، فلمّا أرادَ المسؤولون إعلانَ إيمانِهم بتنزيه الله تعالى عن الشِّرك، والبراءة مِمَّن أشركوا بهم؛ ناسَب ذلك قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: 18].

وأمّا آيةُ سورة سَبأ؛ فسبقها قولُ الله تعالى للملائكةِ يومَ الحشر: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾، فلمّا أرادَ المشركون أن يتَّخذوا الملائكة أولياء مِن دون الله تعالى، وكانت الملائكة تعلم أنَّهم في حاجة إلى من يَتولّاهم؛ ناسب ذلك قوله تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾[1].

عِلَّةُ فصل جملة: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾:

بيـانُ عبـادةِ المشركين للجنِّ

فُصِل قولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ عمّا قبلَهُ من تنزيه الحقِّ سبحانه من الملائكة، وتبرئةِ أنفسهم ممّا نُسِبَ إليها من كونِهم معبودين؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فهو جوابٌ عن سؤال ناشئ

(1) سعد محمد، استدراك ما فات، ص: 85 - 86.

مؤسَّس على ما سبق موجَّه للملائكة، مفادُه أنَّ هؤلاء إن لم يكونوا يعبدونكم؛ فمَن كانوا يعبدون؟ والجواب: أنَّهم كانوا يعبدونَ الجنَّ.

معنى ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾:

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ مؤذنةٌ بمعنى: الإضراب، إضرابٌ عن الأوَّل، وإثبات للثّاني[1]، فإنَّهم قد أضربوا عن ذلك، ونَفَوا أنَّهم عبدوهم على وجه الحقيقة[2]، ويُشير إلى نَفْيِ عبادةِ المُشْركينَ المَلائِكَةَ، وإثبات أنَّهم كانوا يعبدون الجنَّ.

نفى الملائكةُ عبادتَهم، وأثبتوا عبادةَ الكافرين الجنَّ

والإضرابُ في ﴿بَلْ﴾ هنا إضرابٌ انتقاليٌّ، فإنَّهم تبرَّؤوا منهم، ثمَّ شهدوا عليهم وعلى من سوَّل لهم عبادةَ غير الله تعالى، فهو ليس إضرابَ إبطال؛ فالمشركون كانوا يعبدون الملائكةَ، لكنَّ أكثرهم كانوا يعبدون الجنَّ مع رضاهم بعبادتهم، فحاصل المعنى من كلام الملائكةِ: أنَّهم منكرون عبادةَ المشركين إيّاهم، وأنَّهم لم يأمروهم بذلك، بل إنَّ الجنَّ هي مَن سوَّلت لهم عبادةَ غيرِ اللهِ تعالى، فعبدوا الجنَّ، وعبدوا الملائكةَ[3].

الانتقالُ من التَّبرُّؤ من عبادتهم إلى الشَّهادة عليهم بعبادة الجنِّ

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي ﴿كَانُوا۟﴾:

اسْتُعْمِل فعلُ الكون ماضيًا في موضعين من الآية: الأوَّل قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، أي: "بأفعالهم الاختياريَّة الموجبة للشِّرك"، والموضع الآخر قولُهُ تَعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، والمعنى: أنَّ فعْلَهم ذاك حاصل "بأفعالهم الاختياريَّة والقسريَّة؛ ليعلم أنَّهم عبيدٌ لكم تستحقّون عبادتَهم"[4]، فعلم أنَّ عبادَتَهم في الموضعين حاصلةٌ بأفعالهم الاختيارية والقسريَّة.

عبادتُهم في الموضعين حاصلةٌ بأفعالهم الاختياريَّة والقسريَّة

(1) المبرد، المقتضب: 1/ 12.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520 - 521.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡبُدُونَ﴾:

في التَّعبير عن العبادةِ فعلًا مضارعًا: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾؛ دلالةٌ على التَّجدُّد والاستمرار، وأنَّ هؤلاء المشركين استَمرّوا في هذا البطلانِ من غير ارعواءٍ.

اسْتِمْرارُ أهل الشِّرك في الباطلِ

معنى (أل) في ﴿ٱلۡجِنَّۖ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡجِنَّۖ﴾ مِنْ قولِه تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ دالَّةٌ على العهد، فمعنى ﴿ٱلۡجِنَّۖ﴾ هنا: إبليس وذريَّته الذين زيَّنوا للمشركين عبادتَهم من غيرِ رضاهم بذلك، والتَّعبير بمادة (جنَّ) لها دلالةٌ على الاستتار، فقد كانوا يستترونَ عنهم، ويدخلون في أجواف الأصنام والأوثان، ويخاطبونهم مستجيرينَ به في مثل تلك الأماكنِ المخوِّفة[1].

تَزيينُ الجنِّ عبادةَ غيرِ الله تعالى للنّاسِ

بلاغةُ المجازِ في تعبيرهم بعبادة الجنِّ:

جاءَ التَّعبيرُ بعبادة الجنِّ في قول الله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾، وهم كانوا يعبدون في الظّاهرِ الملائكةَ؛ لأنَّ قوله: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ من باب المجاز المرسَلِ بذكر السَّبب وإرادة المسبَّب؛ ذلك أنَّ الجنَّ هم من زيَّن للمشركينَ عبادة الملائكة[2].

الجِنُّ هم الَّذين زيَّنوا للنّاسِ عبادة الملائكة

علَّةُ فصل جملة ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾:

فُصِلَ قولهُ تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ عن الجملة قبلَهُ: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾؛ لأنَّ الجملة الأولى تعبِّر عن فعل عامٍّ، وهو عبادة الجنِّ، أمّا الجملة الثّانية؛ ففيها إيضاح حالٍ خاصَّة متعلِّقة بالعبادة، وهي الإيمان بالجنِّ، فالجملة الثّانية مبيِّنَةٌ للجملة الأولى في نسبة الذين كانوا يؤمنون بالجنِّ مِن المشركين؛ فبين الجملتَينِ كمالُ الاتِّصالِ.

جملةُ الإيمانِ موضِّحة لجملة العبادة

ويجوز أن يكونَ قولُ الله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ جملةً

بيانُ الباعثِ لهم على عبادة الجنِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.

(2) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 338.

مستأنفةً[1] استئنافًا بيانيًّا، فإنَّه بعد أن أعلنوا عبادة الجنِّ؛ كان السُّؤال المفترض النّاشئ عن ذلك أنَّه كيف تمكَّنت هذه الكائناتُ مِنَ السَّيطرةِ على عقولهم؟ والجواب يكمن في عُمقِ الإيمان الذي رسخ في قلوبِهم، فجعلهم يعبدونَ هذه المخلوقات الخفيَّة.

دلالةُ (الكثرة) في قولهم: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

الاحـتراسُ مِـنَ التَّعميمِ

جاء التَّعبيرُ بالكثرة في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ دون أن يَرِدَ في النَّظْمِ القرآنيِّ (جميعهم)؛ لما في التَّعبير بلفظ الأكثريَّةِ مِنَ الاحتراسِ عن دعوى الإحاطة والتَّعميم، فإنَّ الذين رأوهم، واطَّلعوا على أحوالهم من عبدةِ الجنِّ هم الأكثر، ولعلَّ أَنْ يكونَ في الوجود من الكفّار ممَّن لم يطَّلع الملائكة عليهم[2].

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

أكـثرُ المشركين بالجنِّ مؤمنون

الضَّميرُ المقترن بلفظ (أكثر) في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ راجعٌ إلى المشركين[3] الذين عبدوا الملائكةَ بحسب ظنِّهم، غير أنَّهم كانوا يعبدون الجنَّ في حقيقة الأمر.

معنى (الباء) ومرجع الضَّمير في ﴿بِهِم﴾:

الإيـذانُ بتمام الملابسةِ ودوام المـصاحبـة في إيمانهم بالجنِّ

المشهورُ في معنى حرف الجرِّ (الباء) في لسان العرب أن تأتيَ للمصاحبة والملاصقة[4]، وهي كذلك في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾، فهي هنا مؤذنةٌ بتمام الملابسة، وكمال المصاحبةِ والملاصقة، فإنَّ هؤلاء المشركين قد آمنوا بهم، أي: بالجنِّ فالضَّميرُ راجعٌ إلى الجنِّ، وانحازوا إليهم، وعبدوهم، ولابسوا ذلك الإيمان بهم حتّى كان مِن أمرهِم أنَّ الله ﷻ سيكبُّهم على وجوههم في نار جهنَّم، وبئس المصير.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(4) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.

نكتةُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿بِهِم﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾؛ لإفادة الحصر والتَّخصيص على جهة المبالغةِ، والمعنى: أنَّ أكثرَ المشركين مؤمنون مصدِّقون بالجنِّ المعبودين من دون الله، فكأنَّهم يُصَدِّقونهم وحدهم، ويكذِّبون ما عداهم.

أكثرُ المشركين مبالغون في الإيمان بالجنِّ

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمان في ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾:

التَّعبيرُ بمادَّة الإيمانِ في قولهِ تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، وهيَ مادَّةٌ تدلُّ على التَّصديق، والمعنى: أكثرُ المشركين مصدِّقون بالشَّياطين[1]، وفي هذا تصويرٌ لحال الكافرين؛ إذ وُصِف إيمانُهم بأنَّه ليس إلّا تصديقًا بأباطيل الشَّياطين، وذلك يُنبِئُ عن عُمق الجحودِ الذي استوطنَ قلوبهم، فبدلًا من أن يكون إيمانُهم بالله سبحانه، صار إيمانُهم بالشَّياطين غالبًا على نفوسهم.

أكثرُ الكافرين مصدِّقون بأباطيل الشَّياطين

دلالةُ صوغ ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾ اسم فاعل:

لَمّا كان أكثرُ المشركين راسخين في إشراكِهم بالله تعالى بعبادتهم الجنَّ، لا يقصدون بعبادتهم غيرهم، وقليلٌ مِنهم من يقصدُ بعبادته تزيينَ الجنِّ مع انتفاء رضاه عن ذلك؛ أوردَ الإيمانُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾؛ للدِّلالة على هذا المعنى[2].

المشركون راسخونَ في إيمانِهم بالجنِّ وإشراكهم بالله تعالى

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحشر والجمع والبعث:

الجمعُ معنًى عامٌّ في كلِّ ما تريد أن تضمَّه؛ إذِ الجيم والميم والعين أصلٌ تدلُّ على تضامِّ الشَّيء[3]، وأمّا البعثُ؛ فهو في أصله دالٌّ على الدَّفع والإثارة نحوَ فعلِ شيء معيَّن[4]، وأمّا البعث الإلهيُّ؛ فهو

الجمعُ أعمُّها والحشر أخصُّها

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 450.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).

على نوعَين، أحدهما: إيجادُ الأعيان والأجناس لا على مثال، وهو مِن اختصاصِ الباري سبحانه لا يقدر عليه سواه، والآخر: إحياءُ الموتى[1]، وفي الآية موضع التَّفسير عبَّر بالحشرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ الحشرَ وإن كان فيه معنى الجمع بعد البعثِ، فإنَّه يدلُّ على "زيادة معنًى، وهو السّوق والبعثُ والانبعاثُ، وأهل اللُّغة يقولون: الحشرُ الجمع مع سوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ"[2]، فهو مناسبٌ لمنزلة المحشورين ومؤذنٌ بالإهانة؛ إذِ الحشرُ واقعٌ على هؤلاء الكفّار باللّه جميعًا، وسوقهم سوقًا عنيفًا بما كان من عبادتهم الملائكةَ والجنَّ من دون اللّه تعالى[3].

الولاية والنُّصرة:

النُّصرةُ إعانةُ المظلوم، والولايةُ فيها معنى القرب

أوردَ لفظُ الوليِّ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ دون النَّصير؛ لما في لفظه من معنى القُربِ والإمارة، وأنَّه خلافُ العدوِّ[4]، وبه تقومُ الأمور، وتنتظمُ الأحوال، فأنت وليُّنا، ونحن عبيدُك، نبرأُ إليك منهم[5]، أمّا النَّصيرُ؛ فمادَّته: نصر، وهو دالٌّ على إتيان خيرٍ وإيتائه[6]، وفيه معنى الإمداد، ومنه أُطلِقَت النَّواصِرُ على مجاري الماء إلى الأودية؛ لأنَّه إمدادٌ بما فيه زيادةٌ مناسبة وقوَّة، كما تَمُدُّ النَّواصرُ الأوديةَ والتِّلاع بالماء[7]، ومِن هذا الملحظِ جاءتِ النُّصرةُ بمعنى إعانةِ المظلوم، ومن به حاجةٌ لذلك، وسياقُ الآية ليس في إعانة المظلوم، بل هي في الموحِّدين يومئذٍ، فإنَّهم يستظِلّون بولايته ﷻ.

(1) الراغب، المفردات: (بعث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 299.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 289.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»